



شعرية العمران عند عمر بن باحمد هيبة⁽¹⁾

The Poetry Of Urbanism At Omar Bin Ahmed Heiba

مسعود خرازي، سليمان عشراطي

1 مختبر الخطاب الأدبي في الجزائر - كلية الآداب والفنون - جامعة وهران 1 - أحمد بن بلة - الجزائر.

قسم اللغة والأدب العربي / كلية الآداب واللغات / جامعة غرداية
kherrazi29@yahoo.fr

2 قسم اللغة والأدب العربي / كلية الآداب واللغات / المركز الجامعي - البيض.

تاريخ القبول: 2020-07-17

تاريخ الاستلام: 2019-12-17

الملخص-

تقرأ الدراسة العمران المزابي عند الشاعر الجزائري المعاصر عمر بن باحمد هيبة: "القصر، البئر، السد، السور، البرج" قراءة جمالية تجمع بين فخامة الحضارة المادية وجماليات الأسلوب، فقد وظف الشاعر لغة تستشعر الجمال فجسدته بالصور البيانية من استعارات وكنيات وتشبيهات خرقا للمألوف من القول للنفاد إلى مشاعر المتلقي لتعميق علاقته بهذه الإنجازات الحضارية والإنسانية، كما لجأ إلى جمالية التقديم والتأخير ليعزز مكانة هذا العمران عند المتلقي، فمعروف عن العرب إذا خصوا شيئا باهتمامهم قدموه، وفاجؤوا به المخاطب ليأخذ ذلك موقعا شعوريا مستحسنا عندهم، كما خص التكرار لتفعيل خلق الوفاء والولاء لهذا الموروث، والعمل على إثرائه لمواصلة مسيرة الحضور ولا يبقى ذلك حبيس الماضي، كما أن للأفعال حضورا مميزا ترواح بين الماضي الذي يستحضر تاريخ عمران واد مزاب ومكوناته، وبين المضارع الذي يذهب نحو المستقبل لمواصلة مسار الشهود الحضاري، فتبين أن المرجعية الأخلاقية عند الشاعر أسبق من المرجعية الجغرافية، فاستدعى الشاعر التناص الديني خاصة (الحديث النبوي الشريف) ليفصح عن رغبته في إحالة مزية هذا العمران إلى أهداف ذات صلة

بالسما، كما استدعى حقلين لغويين هما: حقل "الطبيعة" الذي يستحضر طبيعة الجنوب وتناسقها مع العمران المزابي، وحقل "العمران" بمكوناته المختلفة، فاستطاع اختراق النص الشعري ليتحول إلى لفظ ذي شعرية، وبذلك يكون عمر هيبة شاعر العمران المزابي بجدارة والذي اشتغل على أنسنته وتعميق حضوره الجمالي.

الكلمات الافتتاحية-

الشعرية، الشعر الجزائري، عمر هيبة، العمران، الحضارة، واد مزاب.

Abstract-

The Paper Aims To Study In The Valley Of Mzab With The Contemporary Algerian Poet Omar Bin Bahmed Heiba: (The Castle, The Well, The Dam, The Fence And The Tower) An Aesthetic Reading That Matches The Luxury Of Material Civilization With The Aesthetics Of Style, The Poet Utilized A Language That Senses Beauty, And Incorporated It With Metaphors, Allegories And Similes, In Violation Of The Common Adage To Be Inserted Into The Reader's Feelings And To Deepen His Relationship With These Civil And Human Achievements. He Resorted To The Aesthetic Of Advancing And Delaying In Order To Highlight This Urbanization To The Receiver That It Is Known To The Arabs, If They Singled Out Something With Their Interest They Initiate It, And They Surprised Him By Making Him Meet This Emotional Position Desirable To Them. The Poet Also Cared About Repetition When He Used It To Touch Off The Morality Of Loyalty To This Heritage, And Enrich It To Persue The Presence, Not To Remain Detained In The Past. It Turns Out That The Poet's Moral Reference Is Earlier Than The Geography Reference, So He Resorted To Religious Intertextuality Especially (The Hadith Of The Prophet) Venting His Desire By Referring This Urban Advantage And Make It Towed To The Sky, And The Poet Employed Two Linguistic Fields; The Field Of Nature By Evoking The Nature Of The South And Its Harmony With Urbanism And The Filed Of Urbanism, What Allowed Him To Penetrate The Poetic Text To Be Turned Into A Poetic Term. Thus, Omar Bin Ahmed Ahmed Heiba, The Poet Of Urbanism, Rightfully Worked On His Humanization And Deepening His Aesthetic Presence.

Key Words-

Algerian Poetry, Urbanism, Civilisation Valley Of Mzab, Castle, Omar Heiba.

تمهيد:

تحاول المداخلة أن تدخل عالم إبداع الشاعر الجزائري المعاصر "عمر هيبه"، أحد شعراء "مزاب" الذين أبدوا اهتماما لافتا بالعمران في ربوع واد مزاب، ثم إن اتجاه الشاعر لهذا الموضوع وطرحه شعرياً هو من التميز الذي انفرد به دون سواه من شعراء المنطقة، مع العلم أن هذا العمران يشكل ظاهرة متميزة استوقفت المؤرخين والمهندسين والشعراء، مما حدا بالشاعر أن يحاور هذه الخصوصية من منطلق فني وجمالي، ومن هنا نجد الشاعر "عمر هيبه" في حال استغراق مع مكونات ثقافته المزابية الجزائرية، ومع رموزها، ومنها العمران ومخرجاته من القصور "القرى"، المسجد، البئر، السد، السور، البرج، المئذنة، والسوق بإدراك شعري يقظ يعيد به قراءة الماضي للذهاب بعيداً في مسار مواصلة بناء الذات، فبقدر تجذرا المرء في الماضي بوعي بقدر ما يتأسس الواقع على قواعد صلبة ليوصل رحلة الحضارة الإنسانية.

ومن هذا المنطلق حاول الشاعر "عمر هيبه" أن يتعامل مع الموروث الحضاري المزابي من الداخل، وإعادة إحيائه لتفعيله وترسيخه في الذائقة الفردية والجماعية بطرح شعري بسيط بجماليات وظلال فنية تزيد المتلقي تعلقاً بموروثه، وإقبالاً على واقعه بحس واع، ومسؤولية أعمق بضرورة العمل الجاد من أجل استمرارية هذا الحضور الحضاري، مؤمناً بأن هذا الزخم التراثي ليس "سوى نقطة ارتكاز أو نقطة بدء، والوقوف عنده أو حصر الجهد في دائرته قصور وخيانة لهذا التراث نفسه وكسل عقلي لا يغتفر"⁽²⁾.

وقد عُرفَ واد مزاب بتركيبته العمرانية المتميزة التي تعتبر أنموذجاً من نماذج العمارة الإسلامية التي أثارت انتباه الدارسين فأوسعوها نظراً ودراسة، وتعدى الأمر إلى الشعراء والأدباء، فتنبّهت عواطفهم لهذا المنجز الإنساني فأوسعوه وصفا وإشادة لما يتميز به من معانٍ إنسانية راقية لم تُختَصَر في آليات إنجازها فحسب، بل تعدّتها إلى الجوانب الأخلاقية والدينية والاجتماعية والأمنية والاقتصادية والإنسانية التي عمّقت حضور هذا المشهد الحضاري في ذاكرة الناس فلفت انتباههم وتغنوا به، وعقدوا زيارات إليه، وأوصوا غيرهم بزيارته، وقد عبرت بكل وضوح عن ما وصل إليه الفكر والعبقريّة الإنسانية في هذه الربوع الجزائرية من الوعي الحضاري والجمالي

المتصل بالسماء، ولذلك "كان المخططُ المزابي حيثما يخطط لمدينته "قصره" أو بيته وما يستلزمه من مرافق إنما كان ملبياً لمتطلبات عقيدته وبيئته قبل أن يكون ملبياً لرغباته واحتياجاته الشخصية"⁽³⁾.

وأمام هذا الجمال الإنساني وقف شعراء مزاب يستحضرون هذه الحركية الحضارية لتدخل عوالم المشاعر حتى تتماشى مع عوالم الهندسة والبناء والعمل، ومن الذين أفردوا لهذا المنحى الشعري نصوصاً شعرية قائمة بذاتها الشاعر عمر بن باحمد هيبة الذي ألهمه هذا العمران أن يستحضر ذكاء الأوائل وحذقهم وصراحتهم في مسامرة عصرهم بمعماريمثل ذوقهم وإرادتهم وفلسفتهم في اغتنام تفاصيل الحياة.

وقد عرف واد مزاب عمراننا متميزاً عرفته البشرية عبر التاريخ، ووقف عنده علماء الآثار من الجزائريين والعرب والغرب، مشيدين بهندسته ونظامه، وما يترتب عن ذلك من علاقات ومعاملات تنبئ عن ميراث حضاري عريق، رغم وجوده في منطقة صحراوية وعرة تتطلب جهوداً مضنية لإقامة مشروع حضاري كان من نتائجه بناء قصور أو قرى أو مدن بالمفهوم المعاصر.

ومما يشد الانتباه "أن هذه المدن كلها أنشئت فوق جبال، والمسجد يجعل مقره في القمة، ثم تبنى وتنشأ البيوت من حوله، وتُسَوَّرُ القرية أخيراً بسور يحفظها من الطوارئ والغارات"⁽⁴⁾، وإلى أسفلها تتربع الواحات والمزارع على مساحات أنعشت الربوع، وذُلَّتْ صعوباتها، فتعاون القصور والواحة فأبدعا معا حضارة باذخة "تصنع من قسوة الطبيعة وجفوتها لونا ممتازا من ألوان الحضارة الزاهرة الباهرة التي جمعت بين جلال الطبيعة الساذجة، وجمال اليد الإنسانية الجبارة الصنع"⁽⁵⁾، واجتمعت كل هذا المخرجات الحضارية لتلهم الشعراء فيقولوا في هذا المشروع الإنساني ما يستحق من البوح والإشادة.

ويعتبر الشاعر عمر هيبة الشاعر الأكثر حضوراً في التعبير عن الوجدان المزابي والجزائري والإسلامي الذي أفرد لهذا العمران حيّزاً عاطفياً من خلال دواوينه؛ ليرسخ المفاهيم الحضارية التي خلدها الأوائل حين وضعوا بصمتهم في هذه الحياة في ذاكرة الأجيال، وقد صرَّح بذلك حين أكد براعة الجهد البشري الذي بُنيَ به هذا العمران ليكون قدوة وأنموذجاً للإصرار البشري

على التميز، فراح يصفه في مقدمة ديوانه "قلب وحجر" بأنه "الأثر الخالد والمعلم الثابت والإنجاز الباهر الذي تركه الإنسان وخلده الحجر ابتداء من أهرامات مصر إلى نقوش الطاسيلي إلى الأسرار العمرانية بمزاب يستقرئه الأحفاد فيعلموا منه عظمة الأجداد"⁽⁶⁾.

وسنركز في هذه السانحة على الأمكنة التي مكنت للعنصر الحضاري الذي ألهم الشاعر عمر هيبة أن يقول مشاعره، فعرج على القصر "المدينة - القرية" ومكوناته من البئر والسد والصور والبرج، وأبرز جمالياته من خلال خطابه الشعري الذي صور العمران المزابي الإباضي وما يتميز به من خصوصيات. فقصور مزاب أمكنة مادية لكنها تعيش على دلالات نابضة بالحياة المعنوية المستمرة، فالمكان بهذا المفهوم "يجسد هذا التداخل في النص الشعري و يعطي للنص أبعادا و دلالات، ويحمل ذات الشاعر لأنه ارتفع به من مجرد حيز جغرافي جامد إلى حيز لغوي ينبض بالحركة والحياة والتفاعل الإنساني، وحمله همه ثقافته وثقافة الجماعة"⁽⁷⁾، ويكون دور الشاعر تأكيد ديمومته الاعتبارية، وكيونته الأنية نحو تفكير إبداعي يسعد الواقع، و يتواصل مع المستقبل في تناسق وتناغم كبيرين.

ومن هنا نجد الشاعر عمر بن باحمد هيبة مولعا بهذا المعطى الوجودي الذي أفرد له قصائد يحضر بها وجدان الإنسان ليعيش على وقع هذه الخصوصية التي يعترف لها القاضي والداني بفاعليتها في تكوين مجتمع متماسك متوازن منضبط إلى أبعد الحدود، مع عدم إنكارها للمحدثات من الأمور في الحياة إيجابا وسلبا.

أولا: مكونات العمران بواد مزاب:

1- القصر:

ويعني بالمزابية "أغرْم"، وبالعربية القرية أو المدينة، ومجموعها القصور؛ وهي العطف "تجنينت" وبنورة "آت بنور"، وغرداية "تغردايت"، ويني يزجن "آت يزجن"، ومليكة "آت مليشت" المتقاربة مسافة، وتشكل في مجموعها ما يسمى "واد مزاب"، ويسمى بها بعض الباحثين ببلاد الشبكة، ومن حوّل هذه المدائن أو القصور أقيمت الأسوار والأبراج، وبعد فترة زمنية بنيت القرارة "إقرارن"، وبريان "آت برقان"، "لكن هندستها واحدة، حيث تقوم فلسفتها على ثلاثية

مقدّسة" هي المسجد والسوق والبيت باعتبارها المراكز التي يتحرّك فيها الإنسان⁽⁸⁾، وقد عُرف المجتمع المزابي على مر العصور بهذه المدن أو القرى التي طلعت في واد غير ذي زرع، والتي اختير لها أن تقع في مكان مرتفع، "مراعين في ذلك قدرة المدينة على الدفاع ضد المغيرين، ووقايتها من فيضانات الأودية، والحفاظ على الأراضي الزراعية ذات التربة الطيبة"⁽⁹⁾.

وقد تغنى الشعراء بذكر "مزاب" وبإسهامه الحضاري الإسلامي والوطني، وبموقعه الجغرافي، فهو لا يختلف مآثر عن العواصم الإسلامية الجزائرية القديمة مثل تاهرت وتلمسان وبجاية وغيرها من الحواضر التي تغنى بها الشعراء القدامى، وبرغم ما طرأ من مستجدات المدنية على هذه القصور إلا أنها لا تزال محافظة في الغالب على نسقها العمراني القديم، فقد أفاض الشاعر عمر هيبة في الإشادة بها وبحاضرها، ولم تمنعه التحولات المعاصرة من التذكير بجماليات هذا العمران، رغم ما يقال عن الشعراء المعاصرين الذين وقفوا من المدينة "موقفا رافضا سببهُ الضيقُ وكراهيةُ المدينة من خلال ما يتعرضون له من قسوة الزمن والسرعة والتوترِ وافتقار الألفة والمحبة وانتشار الزيف والتلون والعنف أحيانا..."⁽¹⁰⁾.

فالمدينة حاضرة جزئيا في الشعر العربي المعاصر سواء تخاصم معها الشعراء أو تصالحوا تبعا لخصوصية كل واحدة منها، ولذلك فالمدينة بهذا التطور التاريخي والنفسي والاجتماعي "تعد موضوعا شعريا بارزا وحديثا، وهي من المحاور المتميزة في الشعر الحديث والمعاصر، وإن كان منشأ هذا الموضوع الشعري غريبا، إلا أن ذلك لا يعني عدم أصالته في شعرنا العربي المعاصر"⁽¹¹⁾، وقد نلاحظ بأن الشاعر عمر هيبة ذو موقف متصالح مع قصور واد مزاب لما تحمله من عبق التاريخ، كما أنها لم تتخلف عن مساهمة التطورات الحاصلة نسبيا، ومن ذلك قوله ملخصا حضارة واد مزاب⁽¹²⁾:

مزابُ الأبى مراتعُ حُرٍّ بلادُ كفاحٍ وجهدٍ وقَسْرٍ
حضارته من رواية صخرٍ وسدّ متينٍ وبئرٍ وقَصْرٍ

والمكان هنا عند الشاعر يخرج من الجغرافيا إلى الأخلاق، فالمرجعية الأخلاقية أسبق عنده من المرجعية الجغرافية، فتراه معددا مآثره ومآثر من قاوم في إنشاء هذه الأمكنة الباذخة من الإباء والحرية والكفاح والجهد

وصلابة الصخر ومتانة السد والبئر والقصر؛ وحقيق على الشعراء أن يتغنوا بها، ومن جماليات البوح بهذا التغني اللجوء إلى الاستعارة المكنية "التي لم يذكر فيها المشبه به وإنما يكنى عنه بذكر أحد لوازمه"⁽¹³⁾، التي حاول من خلالها خرق المألوف باستحضار معنى "الرواية" الذي هو فعل بشري، ليحيله للحضارة التي هي مكسب مادي؛ ليعمق به منسوب التأثير بهذا المنجز الحضاري، فالصخر والسد والبئر والقصر مكونات تقوم مقام "المشبه"، أما "المشبه به" المحذوف فهو الإنسان، والذي عوضته قرينته المتمثلة في "الرواية"؛ بمعنى أن لكل معلّم من المعالم المذكورة سلفاً ما يرويه من مآثر تفخر بها الإنسانية، وكلها تشهد لهذه الحضارة بالتألق، وهي بهذه الوظيفة الجمالية "تؤدي وظيفة إبداعية عليا هي تثوير الدلالة وتأجيج المخيلة لضمان كسب المتلقي وانحيازه إلى النص"⁽¹⁴⁾، والتي حققت للشاعر النفاذ إلى مشاعر كل من يسعد بمثل هذه الإنجازات الحضارية والإنسانية، وبذلك "تكتمل الصورة الشعرية مرتفعة من الجزئية البلاغية المستقرة إلى الحركة الحية النامية، إلى الحالة الشعورية التي امتلأت بالإحساس..."⁽¹⁵⁾، حين يستغرق الشاعر في تعيين مواطن الجلال والجمال التي يمتاز بها واد مزاب.

ومزاب بهذا التصور العاطفي عند الشاعر يظل ناميا في داخله، مسجلا حركيته التاريخية منذ وجوده في ربوع مقفرة، ولكن الإنسان المزابي القديم حوّل هذا القفر إلى أمكنة تنبض بالحياة، ولم يُحَنِّ للأزمات ظهره، كما تعهد أبنائه بالقرآن والاستقامة والطهر والكدح وعمارة الأرض؛ حيث يقول⁽¹⁶⁾:

مزابُ الذي كان جُهدُ دُعا	وثمرَةُ طُولِ العِنا والرّهان
مزابُ الذي كان جُرْحُ السنين	توالَتْ عليه صروفُ الزّمان
ولم يُحَنِّ للنكباتِ جبيناً	ولا قمصَ الدهرِ ثوبَ الجبان
يجدّدُ أنفاسه بعدَ قحطٍ	وجذبٍ و ينعمُ بالفيضان
ترعرعُ أبنائُه في الهدى	وقد غرّفوا من صَفِيّ اللّبان
وننشئُ في الطهرِ أبناءنا	وهم يَصُدّحون بآيِ البيان
فيعظُمُ في المرءِ حبُّ البقا	ويكبرُ في الربعِ هذا الزمان

وفي هذه الأبيات يتبين بجلاء أن منطقة مزاب في منطوق الشاعر "ليست مكانا جغرافيا، بل هي مكانة كونية، درجة عليا من الوجود تتكثف فيها أقطار الأرض وأبعاد السماء، ويلتقي فيها التاريخ بالواقع في بؤرة واحدة مجسدة وشفيفة في الآن ذاته"⁽¹⁷⁾، ومن هنا يمكن للمرء أن يتصور التواصل الذي سيمد في عُمر "واد مزاب" الذي لا ينفصل ماضيه عن حاضره، إلا أن ذلك يشكل استثناء في تعامل الشاعر (عمرهية) مع "القصر"، فهو متصالح مع ماضيه ومتناغم مع واقعه رغم بعض المنغصات، على عكس موقف بعض الشعراء العرب أو الجزائريين المعاصرين في تعاملهم مع مدنهم، ف كثيرا ما كانت مواقفهم تنجح للرضا حيناً، كما تنجح لرفض واقعهم أحيان كثيرة، وقد أفصحت أغلب أشعارهم عن "الرفض والنقمة والأسى على حياة مفروضة، وعلى الضياع في مدن الأشباح، ضياع وغربة ووحدة انعكست معاناتهم اليومية على تجاربهم المريرة كأفراد يتمتعون بشفافية، فكان الروح الرومانسي الأسيان ملاذهم، إماماً ضاقت بهم سبل الحياة في المجتمع الذي تولى عن الإنسانية أو تخلت هي عنه"⁽¹⁸⁾، وأمام هذا الاستثناء في التناغم مع القصر "المدينة" نجد الشاعر عمرهية قد استعان في رصد هذا التميز بالكناية التي يعرفها البلاغيون بأنها "إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه"⁽¹⁹⁾، وقد وردت في أبيات الشاعر وسيلة هامة للإفصاح عن إكباره لهذه الحضارة التي ظلت مثالا للتضحية والصمود، فمزاب الذي كان جرح السنين كناية عن الصبر والمكابدة - لم يُحَنِّ للنكبات جبيناً كناية عن الصمود وعدم الرضوخ والاستكانة للخطوب - يجدد أنفاسه بعد قحط كناية عن التجدد والانبعاث - غرقوا من صفى اللبان كناية عن الشرف ونقاء الأصل - فيعظم في المرء حب البقاء، ويكبر في الربع هذا الزمان كناية عن الأمل - فهي كلها صور متلاحقة يجسد بها الشاعر إحساسه بعظم إرادة الإنسان في الوجود بربوع مزاب.

ونجد الاستعارة المكنية في قوله "وهم يصدحون بأي البيان" يصور فيها أبناء مزاب كالبلابل في حال شدوها من خلال القرينة "يصدحون"، وهي تترنم

بتلاوة القرآن، ففيها تأكيد أن هذه الحضارة مقرونة بالقرآن العظيم تلاوة وعمالاً، ولذلك يؤكد بعض الدارسين أن جمال الشعر من جمال الاستعارة⁽²⁰⁾.

كما نلمح كثرة الأفعال الماضية والمضارعة؛ فالماضي كما يُعرفُ النحاة ذو "دلالات عدة في الإعراب عن الزمان، فهو في أغلب الأحوال يدل على حدث أنجز وتم في زمن ماضٍ"⁽²¹⁾، والمضارع الدال على الحركة والاستمرارية؛ إذ "يبدأ في الحاضر ويستمر في المستقبل"⁽²²⁾، وقد ورد الماضي ست مرات في: كان (2)، توالى، قمص، ترعرع، غرفوا، كما ورد المضارع سبع مرات في: لم يُحَن، يجدد، ينعم، ننشئ، يصدقون، يعظم، يكبر، لنكون أمام شعور يتأرجح بين الماضي الذي يتمثل في اعتزازه بتاريخ حضارته، وبين حاضر ومستقبل يراه أولى لمثل هذه المكاسب أن تواصل مسارها إنماء وإعماراً دون استسلام للمعوقات، ويزداد تعجبه من كيفية مقاومة بناء هذه الحضارة في أرض لا تملك مؤهلات للعيش⁽²³⁾:

عجباً أن تحضن الأر	ض وجود البشر
في سماء جوها أصد	حى عديم المطر
في جبال كلها قف	ر وأرض الخطر
تحت شمس حرها يح	رق روح الشجر
عجباً أن يسكنوا ال	أرض كصم الحجر
إنه الجهد الذي حق	ق حكم القدر

لا يزال الشاعر مسكوناً بحب هذه الأرض، فاجتمعت لديه المحبة الغريزية التي نلمسها عند كل الناس في تعلقهم بأرضهم، لكن البعد الآخر لهذا الحب هو ما يكتنزه هذا الموروث العمراني من الأخلاق الحضارية والإنسانية التي تمنحه القدرة على أن يُحب، وهو ما جعل الشاعر يستعين بتقديم الخبر من الجار والمجرور والظرفية على المبتدأ إمعاناً في الشغف بهذه المعالم العمرانية بواد مزاب؛ وذلك عن طريق الصيغ التالية: في سماء، في جبال، تحت شمس، ويعتبر هذا التوظيف أسلوبياً "تحول في بنية الجملة نحو إعادة ترتيب المفردات وتركيبها في الجملة على نحو يرتبط أسلوبياً وفكرياً بالمنشئ، ويوضح طريقته في الإنشاء"⁽²⁴⁾، مما ساعد هذا التوظيف الشاعر في

إبراز اهتمامه بهذا المكان ليحوّله في ذاته إلى التعبير عن المكانة التي يحظى بها واد مزاب عنده، وهو ما يؤكد أيضا أن العرب "إذا خصوا شيئا باهتمامهم قدموه وفاجئوا المخاطب به ليقع ذلك في نفوسهم موقعا ثابتا"⁽²⁵⁾، وكان الشاعر يريد أن يعمق تعجبه من مكان مقفر موحش، وجبال خطيرة، وشمس حارقة، وتعجبه من الإنسان الذي استطاع في هذه الظروف القاسية أن يُطْلِع حضارة عجيبة تَحْظَى بالإعجاب، وإعجاب الشاعر بهذا الفضاء وبهذا الإنسان الذي قهر الصعاب، وأبدع في بعث المكان من الوحشة إلى المتعة والجدوى يعبر عن افتتاح كل الذين مروا بهذه الربوع مسجلين إعجابهم، ومن تلك الاعترافات ما ورد عن (Claude Pavard) عندما زار "مزاب" حيث يقول "إن مزاب سحر وهيام، وإنني كمصور لم أر في الغرب كله منظرا خلايا بجمااله مثل جمال هذه المدن المعجزات التي برزت في الصحراء بإرادة الإنسان"⁽²⁶⁾. ويواصل الشاعر رحلة الافتتان بواد مزاب حيث يصرح⁽²⁷⁾:

سيكون الرُّبْعُ أغلى من دمي راسخا مثلُ رسوخِ الهرمِ
طاهرا مثل ربوع الحرم شامخا مثل علوِّ العلمِ

وبهذا التوصيف يكون "مزاب" هذا المكان أغلى من دمه، مستعينا في التعبير عن ذلك بالتشبيهات المتتالية: راسخا مثل رسوخ الهرم، طاهرا مثل ربوع الحرم، شامخا مثل علو العلم؛ والتشبيه "إخبار بوجود الشبه، والشبه هو اشتراك الطرفين في صفة أو أكثر، بحيث يظل كل واحد منهما غير الآخر ولو لم يكن كذلك لكانا شيئا واحدا عبّر عنه بعبارتين، ولا شبه حينئذ بين الشيء ونفسه"⁽²⁸⁾، فقد عقد الشاعر مشابهة بين "مزاب" والأهرام، والبيت الحرام، والجبل الشامخ، ولعل اختيار هذه المشبّهات به مستعينا بالأداة "مثل" إنما يريد بها تأكيد صمود وثبات هذه المعالم الحضارية بواد مزاب التي تشبه عظمة الأهرامات تاريخا، وعظمة الحرم عقديا، وعظمة الجبال في ثباتها ورسوخ قدمها أخلاقيا، وهذه الصور من المشبه "مزاب" والمشبّه به المتعدد "الهرم، الحرم، العلم" هو محاولة فنية تقوم على تجسيد قيم الصمود والثبات التي تتحلّى بها حضارة واد مزاب، ويريد بواسطة هذه الصور ترسيخها في الأذهان والقلوب كما هي راسخة في الأزمان، ومما زاد في تقريب هذه الصور إلى النفوس استغلالها الجانب الإيقاعي المتعلق بالتوازي، أو ما

يسميه محمد مفتاح في كتابه "تحليل الخطاب الشعري- استراتيجية التناس" بالتشاكل، وهو "تنمية لنواة معنوية سلبيا أو إيجابيا بإركام قسري أو اختياري لعناصر صوتية ومعجمية وتركيبية ومعنوية وتداولية ضمانا لانسجام الرسالة"⁽²⁹⁾، ففي هذين البيتين تشاكل نحوي تركيبي يهدف إلى ترسيخ إيقاع مقصدية الشاعر من الرسالة التي أراد تبليغها للمتلقى في علاقته التفاعلية مع حضارة واد مزاب بتوالي الصور الحسية، فكأن القوة بمختلف صورها تجتمع في تشكيل صورة واد مزاب من صمود الهرم، وطهارة أرض الحرم، وشموخ العلم، وهذه الصور المتلاحقة تعلي من شأن هذه الحضارة في نفسية كل من يتوصل لإدراك هذه الحقائق.

كما أن لأسماء الفاعلين حضوراً متتابعاً في هذين البيتين: "راسخ، طاهر، شامخ"، واسم الفاعل "صفة تؤخذ من الفعل المعلوم، لتدل على معنى وقع من الموصوف بها أو قام به على وجه الحدوث لا الثبوت... والمراد بالحدوث أن يكون المعنى القائم بالموصوف متجددا بتجدد الأزمنة"⁽³⁰⁾، فإلى جانب تجسيده للإيقاع داخليا فإنه أنتج دلالة تتناغم مع موقف الشاعر المشيد بالعمران المزابي شموخا وطهارة ورسوخا، وكأنني به يشير لثبات هذه المعالم العمرانية، كما يشير إلى استمرار حضورها البهي، وتجدها بتجدد الاعتزاز بها، ومواكبتها نحو مزيد من التألق لتصنع مستقبلا يجمع بين ماض مشرق ومستقبل متجدد.

2- البئر:

فالبئر الذي كان وسيلة حيوية للإنسان في ربوع الوادي؛ سواء الآبار التي حفرت في أعالي الجبال حيث القصر، أو تلك التي حفرت في الواحة في سفوح الجبال التي يلجأ إليها الإنسان للفلاحة واكتساب المعيشة، وفي ذلك يبين الشاعر عمر هبية جمالية البئر في حياة الإنسان بواد مزاب⁽³¹⁾:

استقرئوا البئرَ رِقْراً بتربتنا فعمقه عمقنا في عزِّ ماضينا
هو الوريدُ الذي يبقَى به رمقٌ هو الذي حوّل الصحرا بساتينا

وهو هنا يبرز ما للبئر من وظيفة أساسية في مثل هذه الربوع التي تتميز بقساوة الحياة، والذي يشكل من وجهة حضارية مؤشرا من مؤشرات التميز للإنسان الذي استطاع بصبر وعزيمة أن يتحدى المعوقات، فكان عمق البئر

دلالة على عمق هذا المجتمع في السياق الحضاري، وقد يكون حفر الآبار أصعب إذا حُفر في أعالي الجبل بداخل القرى، وهو ما عُرِفَ عن العمران في قصور واد مزاب "التي شهدت مراحل من الكفاح المرير الذي خاضه سكان مزاب، فهي أولا كلها لله لا لسقي غابة ولا شجرة بل لتكفي ضرورات الناس في الغسل والوضوء ابتداء من آبار المساجد والأسواق، وانتهاء بمختلف الآبار الموجودة في البلدة، ومن المستحيل أن تجد في قمة الجبل غير الصخر ومع ذلك فقد حفروها"⁽³²⁾، وهو ما جعل الشاعر متمسكا بمثل هذا الشعور نحو هذا العمران الذي يعبر عن إرادة الإنسان في صناعة الحياة، وبذلك يكون حفر الآبار في أعالي الجبال التي بنيت عليه هذه القرى ميزة عمرانية حضارية تشهد بإرادة صلبة، والذي استطاع أن يقاوم كل الظروف ليكون من دلائل الشهود الحضاري في هذه الرقعة من بلاد الجزائر، كما حفر آبارا حول هذه القصور لينشئ بها جنات وبساتين، وعليه فإن البئر عند شاعرنا هو العمق الحضاري لمجتمعه، وهو الوريد الذي ينعش الحياة في الإنسان.

ومن أجل تحقيق لمسات جمالية للبئر الذي ظل ضرورة حيوية في العمران المزابي لجأ الشاعر إلى المجاز الذي هو "مجاز لغوي يرتبط فيه المعنى الحقيقي بالمعنى المجازي بعلاقة أو نسبة هي غير المشابهة، وجرت تسميته بالمرسل لأنه غير مقيد، والقيد المقصود هنا هو علاقة المشابهة"⁽³³⁾، ففي "استقروا البئر رقرقا" ذكر البئر وأراد ما يوجد فيها، وهو الماء، فهو مجاز مرسل علاقته المحلية، بأن "يرد اللفظ الدال على المحل ويراد ما حلَّ به"⁽³⁴⁾، ويوحى بأن الشاعر يستحضر البئر كائنا حيا له مقامه وأهميته في البنية الاجتماعية، كما يدل على تعظيم مقام هذا العنصر الحيوي في حياة الناس والكائنات عموما، وعليه فإن كل ما يساهم في إسعاد الناس وتطوير حياتهم يحظى بالثناء والقبول والإكبار، وهو ما حاول الشاعر أن يحققه من توظيف هذا النوع من المجاز.

وفي السياق نفسه لجأ إلى التشبيه البليغ حين يقول عن البئر "عمقه عمقنا"، ومعلوم أن التشبيه البليغ هو "ما غاب منه وجه الشبه والأداة، وفيه يجتمع المجلل والمؤكد.... وفيه يجري الجمع بين الطرفين دون توسط أداة ولا وجه شبه، وإذا المشبه به خبر أو في حكم الخبر عن المشبه، وغياب هذين الركنين

يفتح الباب أمام الذهن يتطلع إلى جميع وجوه اللقاء الممكنة بين الطرفين فإذا هما واحد أو كالأواحد في التصور⁽³⁵⁾، فعمق البئر عند الشاعر من عمق المجتمع المزابي، للدلالة على التجذر الحضاري لهذا المجتمع، فالحياة التي يهبها البئر من خلال مائه هي الحياة والتميز اللذان يقدمهما المجتمع المزابي للمجتمع الإنساني من خلال هذه الحضارة المادية والمعنوية، والمشبّه به "عمق المجتمع المزابي" سبب وجود المشبه "عمق البئر"، والشاعر بهذا التشبيه البليغ يعتبر مجتمعه فاعلا حيويًا يهب الإنسانية الخير والنفع والتميز مثلما يهب ماء البئر الحياة للأرض، فكلاهما يصنع الحياة، والحكم نفسه يقال عن الصورة "هو الوريد"، فالبئر وماؤه عرقٌ ينقل الدم في جسم الإنسان، والمحصلة الجمالية في هذا التشبيه أن مهمة البئر في العمران المزابي رمز للحياة، وهو من أرقى مكونات هذا العمران، والدليل أنه وهب الحياة للصحراء لتتحول إلى بساتين وجنات ظليلة، ومثل هذا التصور وجمالياته "يؤدي إلى التراسل النفسي بين الشاعر وعناصر الطبيعة لتحقيق شعرية الصورة"⁽³⁶⁾، فالتقى في الصورة البعد الحضاري بالبعد الطبيعي ليشكل منهما الشاعر صورة تنبض بالرومانسية والحضارة.

كما نجد في البيتين تلميحات ذكية تحيلنا على قوله تعالى "أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا^{٣٦} وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ^{٣٧}"..... وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون⁽³⁷⁾، وذلك بإيراد مؤشرات لها مثل "الوريد- رmq- حول الصحراء بساتين" فكلها تحمل دلالة الحياة، وأن الماء هو أصل الحياة، وفي ذلك إشادة بهذا المنجز الحضاري الذي يحمل الحياة بين جنبه.

ولا نعدم في البيتين حضورا للمعجم الرومانسي الذي يؤكد المنحى النفسي للشاعر من خلال تعلقه بحضارة واد مزاب، "رقراقا، تربتنا، رmq، الصحراء، بساتين"، فهي ألفاظ تنحو منحى الرومانسية المتفائلة التي استطاع من خلالها الشاعر عمر هيبة أن يحوّل اتجاهها من الرومانسية ذات الطابع الفردي المعبر عن حاجات الفرد النفسية إلى رومانسية ذات طابع واقعي واجتماعي تتناغم مع مشاعره المشيدة بحضارة واد مزاب؛ إذ كانت المحافظة

على الموروث والانقياد له من أولوياته، والحرص على التعبير عن مشاعره في جو من المسألة وعدم الاصطدام مع الثوابت دينيا واجتماعيا⁽³⁸⁾.

3- السد:

السدود مكوّن آخر لحضارة واد مزاب، فقد بنيت بمعرفة جليلة بأهمية دورها الحيوي، فهي "تقوم بمهمة خزن المياه وحجزها فلا تذهب إلى الرمال التي تنتظرها، ولكن لا يطول بقاؤها خلف هذه السدود، فسرعان ما تتسربها الأرض، وتمتلئ هذه الآبار"⁽³⁹⁾؛ ولذلك كان للسد دوره الكبير في تفعيل الحياة الاجتماعية وإشاعة الخير والنماء في الأوساط، وهو بذلك من مصادر الحياة عند الشعوب، وقد استوقف الشاعر "هبة عمر" الدور الذي تقوم به السدود مشيدا بدور بانيها الذي خصه بالتجلة والاحترام حين يقول⁽⁴⁰⁾:

يُرَاوِدُ السَّيْلَ تَوْزِيْعًا وَتَخْزِيْنًا	اسْتَقْرَرُوا السُّدَّ مَرْصُوصًا جَوَانِبُهُ
مِنْ أَيْ جَامِعَةٍ عِلْمًا وَتَكْوِيْنًا؟	يَا بَانِي السُّدِّ كَالْإِيْمَانِ شِدَّتُهُ
حُزَّتْ الْبِرَاعَةُ دَقَّقَتْ الْمَوَازِيْنَ	أَنْتَ اللَّيْبِيُّ الَّذِي أَجْرَى مَشَارِبَنَا
فَأَصْبَحَتْ نَحْلَةً تَحْوِي الْقَوَانِيْنَ	وَخَبْرَةُ الْمَاءِ فِي صَحْرَائِنَا هِبَةٌ

فالسد في منظور الشاعر مؤشر لتراس الصفوف، ومؤشر عدالة في توزيع المياه بين الناس، وتخزينه لوقت الحاجة، وهو مؤشر قوة الإيمان في معترك الحياة أيضا، أما بانيه فعالم متكوّن خبر الحياة وتفصيلها، وتوزيع الماء في ثقافة الصحراء قوامين لا يدركها إلا الموهوبون من الناس.

والإشادة بالسد تتشكل من دوال مثل "مرصوص، السيل، توزيع، تخزين"، وهي دوال تبرز وظيفته الحيوية في إشاعة معنى الحياة والنظام في تمكين الناس من الاستفادة من الماء، وتوطين النظام بينهم، كما استعان في تجسيد ذلك بالتناسل الذي "هو تعالق (الدخول في علاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة"⁽⁴¹⁾ وذلك مع حديث رسول الله (ص): "إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ"⁽⁴²⁾، فالحياة التي يبعثها السد في الناس مثل الحياة التي يبعثها المؤمنون فيما بينهم عندما يتحدثون ويتآزرون، والشاعر عمر هبة في هذا التوظيف لا يفصل بين الدين والحياة، ويعتبر ذلك من أهم توجهاته الفنية التي يتبناها في مساره الشعري، وهو

بتشبيهه هذا يومئ إلى قوة السد ومتانته الذي يضمن الحياة الرغيدة للناس مثلما يضمن الإيمان القوي الحياة السعيدة للإنسان في دنياه وأخراه.

وأراد الشاعر أن يعمق أهمية السد ونجاعته أيضاً، حيث راح مستعينا بالتشبيه التام وهو تشبيه مرسل ومفصل؛ "أركانه أربعة، مشبه ومشبه به، ويسميان طرفي التشبيه، ووجه شبه، وأداة تشبيه، ملفوظة أو ملحوظة"⁽⁴³⁾ في قوله؛ "يا باني السد كالإيمان شدته؛ فالشبه "السد"، والمشبه به "الإيمان"، ووجه الشبه "الشدّة"، والأداة "الكاف"، فحضور جميع مكونات التشبيه دلالة على أن الشاعر لم يرد أن يترك للمتلقى مجالا للتخييل ليرسخ فيه ما يريد من المعنى، فهو يهدف إلى ترسيخ صورة لا تخرج عن منهجه الديني في ربط كل سلوك في الحياة بالجانب العقدي، فراح يصور السد في متانة بنائه برسوخ الإيمان في قلب الإنسان، فكلاهما - إن اشتدا - يمنح حياة المرء معنى وقوة وسعادة، فالتقريب بين ما هو حسي "السد"، وبين ما هو معنوي "الإيمان" منح صورة السد بُعداً فنياً عميقاً عمق الإيمان حال رسوخه؛ "لأنه مهما يكن الموضوع الذي يتناوله الشاعر بالتصوير فلا مناص من أن يتلون بلون نفسية الشاعر"⁽⁴⁴⁾، وبالتالي فقد استطاع الشاعر أن يجسد شعوره القوي اتجاه أحد مكونات عمران واد مزاب تجسيدا نفسيا يملك سلطة النفاذ إلى عواطف المتلقين بقوة الفن والصورة.

كما أن استفهامه "من أي جامعة علما وتكويناً؟" الذي يوحى بإكباره وتعظيمه لبراعة باني السد الذي أوتي من العلم ما جعله رمزا من رموز حضارة واد مزاب، ليعين دور التضامن والتآزر في إشاعة مثل هذه التنظيمات التي تضبط العلاقات الاجتماعية، كما أن توزيع المياه عن طريق تلك السدود صورة من صور العدل الذي يمنح الأمن للعلاقات بين الناس، كما يمنح الإيمان القوة للإنسان في التفاعل مع الحياة الجادة، وحتى يعطي البعد الديني لدور هذا السد - وهي عادة الشاعر هيبية عمر - حين يعقد الصلة في كل حركة في هذا الزخم الحضاري بواد مزاب بالعقيدة الإسلامية الصحيحة.

4- الأسوار والأبراج:

مما عرف عن القصور في واد مزاب قديما أنها مسورة بسور فرضته ظروف أمنية واستراتيجية، فهو "يحيط بالمدينة (القصر)...تتخلله أبراج للمراقبة، والهدف من هذا وقاية المدينة من هجمات الأعداء"⁽⁴⁵⁾، وتعتبر الأسوار والأبراج من مكونات العمران المزابي في الماضي، وقد ورد ذكرها عند بعض شعراء مزاب لدورها الكبير من ذلك قول الشاعر عمر هيبية⁽⁴⁶⁾:

استقرئوا البرج من سوى مواقعه حتى غدا مرصداً يُبدي أعادينا
عينان في الربيع لا تغشاهما سنة النجم في نبضه عين تُراعينا
وحارس البرج عين لا هدوء لها فالعين شاخصة ترعى دياجينا

فالشاعر يأمر باستقراء البرج ومساءلته عن الذين أنشؤوه، ودققوا إبداعه لكي يعيش على وقع الحراسة واليقظة، وهو في نشوة الاعتزاز بهذا المنجز الحضاري تتعاقبه نشوة اختيار اللغة الشعرية التي آزرته في رعاية هذا الإحساس، وإبرازه في حلة لغوية راقية، ومنها استحضاره للنص القرآني على سبيل التناص، ومن ذلك في قوله: لا تغشاهما سنة، مشيراً إلى قوله تعالى: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ..."، فإذا كانت الآية تعبيراً عن تنزيه الله تعالى عن السنة والنوم، فإن الشاعر يستوحي معنى البيت من بعض لفظ الآية ليشير إلى يقظة الحارس في البرج وهو يؤدي مهامه في تحقيق الأمن، فرعاية الحارس لسلامة قصره "قريته" هي من حراسة الله لعباده وحفظهم.

كما نجد استحضار الشاعر للحديث النبوي الشريف "عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله"⁽⁴⁷⁾، فهو يؤكد منهج العمران في مزاب الذي تأسس من منطلق عقدي يلتزم السنة النبوية في تفاصيل الحياة؛ ومنها اتخاذ الأبراج لليقظة التي يؤجر عليها المؤمن، ونذكر بهذا التناص عمق ما بادر إليه الأوائل في ربط حياتهم المادية بمقتضيات الدين، إلا أن علاقة الشاعر بالقرآن الكريم في هذا الاقتباس لم تتعمق روح النص القرآني فهو "يلجأ إلى النص القرآني... متأثراً بسحر العبارة"⁽⁴⁸⁾ فقط، إلا أن هذا لا يلغي مبدأ جوهرياً لديه حين يؤسس أفكاره

وصوره الشعرية على روح دينية صريحة، وهو الحكم نفسه في علاقته بالحديث النبوي الشريف الذي اعتمده في هذه الأبيات المختارة.

كما استعان بجمالية الصورة الشعرية حين أشرك النجم في حراسة القصر "المدينة"، فالحارس في برج، والنجم في عليائه يقومان بالوظيفة نفسها، فهنا يكمن الجمال الفني حين يستنفر الشاعر عنصرا من الطبيعة "النجم" ليساهم في هذا المد الحضاري الماتع في تشبيه تمثيلي، وهو المعروف بلاغيا بأنه "تشبيه يقوم على التعدد في وجه الشبه، فهو تشبيه مركب بمركب، وكل طرف حياة حاصلة من أمور يحسن تشبيه كل جزء من أجزاء أحد الطرفين بما يقابله من الطرف الآخر، ويقتضي التعدد فيه طولا في التركيب قصد استيفاء العناصر المكونة للصورة"⁽⁴⁹⁾، فصورة الحارس اليقظ الذي لا تأخذه غفلة مثل النجم يرعى الكون ويحرسه، فالعين والنجم تجمعهما الرعاية والحراسة، وهو وجه الشبه بينهما الذي يوحى برفعة ما ينجزه الحارس في برج من عمل رفيع رفعة النجم، والصورة الشعرية في مثل هذه المسالك الفنية تجعل المتلقي يدرك كيف يكون هذا التشبيه المناسب "موصلا لنوع جديد من الخبرة تعمق - بتأزرها مع غيرها داخل القصيدة - وعينا بأنفسنا وبالأواقع من حولنا، وتجعلنا ندرك الأشياء أفضل"⁽⁵⁰⁾، وهو ما استدعى حضور الوعي بأهمية التعاطي مع تحقيق الأمن لبناء حضارة تسعد الإنسان، وتضمن له حياة آمنة مطمئنة.

كما استعان بالمجاز المرسل في قوله "العين شاخصة"، وقد ذكر الجزء "العين"، وهو يريد الكل "الإنسان الحارس"، على سبيل المجاز المرسل وعلاقته الجزئية، ففيها "يرد اللفظ الدال على الجزء ويراد به الكل"⁽⁵¹⁾ لتبين عظم مسؤولية من ينتدب للحراسة واليقظة، حين يستنفر ذاته كلها في هذا العمل الإنساني المحمود.

كما أن إصرار الشاعر على تكرار لفظ "العين" في هذا المقام أربع مرات يؤكد أهمية اليقظة والحراسة في ضمان الأمن والاستقرار، وترسيخ ذلك في خلد المتلقي، والجدير بالذكر أن التكرار "يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة، ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيّمة تفيد الناقد الأدبي الذي يدرس الأثر و يحلل نفسية كاتبه"⁽⁵²⁾، وهو ما

نطمئن إليه أن الشاعر عمر هيبه بهذا التوظيف التكراري يريد تعميق مسألة الأمن والسلام اللذين تسعى إليهما العين حتى تذلل صعاب الحياة، وتستلذ تفاصيلها في جو من الحرية والسعادة والطمأنينة؛ ومثل هذه الجمالية الشعرية حين تُوظفُ بوعي فني "ليست اعتباطية، وليست من محض الصدفة، بل تأتي من إنتاج نمط من الوعي بالواقع والمحيط ليحدث عملية التفاعل بين المبدع والمتلقي"⁽⁵³⁾.

ثانياً: الإنسان ودوره في المسار العمراني والحضاري:

والشاعر حريص على ربط هذه الحضارة العمرانية ببعدها الديني؛ إذ لا يصيب الإعياء أي جهد يبذله الإنسان حين يكون بنية التقرب إلى الله تعالى، كما خصص في شعره حيزاً للإشادة بصانعي هذه الحضارة العمرانية في بناء الأسوار والأبراج حيث يقول⁽⁵⁴⁾:

وعاملون أقاموا في مرابعنا قرى وأبراجها أسوارها رسموا
وما برحن صروحاً في حضارتنا وما انهدمن وقد أعيأ بها القدم
فكيف يعيا بناءً باسم خالقنا وبالعزيمة تعلو فوقها قمم

وهنا يبرز بجلاء ما يريد الشاعر أن يرسخه في ذهن المتلقي؛ إذ الهدف الأساس هو أن هذه الحضارة في كينونتها تستمد قوتها من خالق الكون سبحانه وتعالى، ثم من عزيمة الرجال الذين حققوا للإنسانية هذا التميز الحضاري؛ وبذلك تخرج هذه الأمكنة من الحيز الجغرافي المحدود إلى الحيز الأخلاقي والديني والتاريخي والإنساني الذي حاز إعجاب القاصي والداني، ولكي يؤكد صمود هذا العمران في الحياة راح يبرز بواسطة جملة من الأفعال الماضية: أقاموا، رسموا، ما برحن، ما انهدمن، أعيأ، فرغم كونها ماضية إلا أنها توحى بروح المقاومة والصبر والتضحيات التي بذلها الأجداد في واد مزاب لرسم معالم هذه الحضارة، فظاهر الأفعال ماضية لكن أبعادها ذاهبة في المستقبل لتؤكد مواصلة هذه الحضارة لحضورها الإنساني، ومما يؤكد ما نذهب إليه وجود فعلين مضارعين: يعيا، تعلو، فالأول "يعيا" ورد في سياق التعجب الذي يفيد عدم العياء، والآخر "تعلو" دال على السمو والتألق، فما دام المضارع يفيد التجدد والاستمرارية فإن الفعلين يحملان أيضاً دلالة معاقبة الشاعر للأجيال اللاحقة التي قد تكتفي بهذا الماضي الجميل فتقبع

في دائرة التغني بدل أن تشمرهي أيضا عن ساعد الجد كي تقدم شيئا على نسق ما قدمه الأوائل، فالعزيمة وعدم الإعياء كفيلا بمواصله مسيرة الحضارة وإغنائها بالجديد الأصيل، وتلك غاية الحضارات التي تأبى الزوال. كما أن المعجم الذي وظفه الشاعر مختار بعناية، فألفاظه تعبر عن مدى اقتناعه بما قدمه الأسلاف من جهد لإقامة هذا العمران: "عاملون، أقاموا، رسموا، باسم خالقنا، العزيمة، القمم"، وحين يتحدث عن هذه الحضارة يرصد طائفة من مكوناتها: "مرايع، قرى، أبراج، أسوار، صُروح، حضارة، بناء"، فقد استطاع الشاعر عمر هيبة أن يتحكم في المعجم اللغوي الذي عرض به مآثر هذه الحضارة بواد مزاب، ولذلك إن "توظيف الشاعر للغة يكون بتسخير الطاقات المعجمية، الصوتية والتركيبية والدلالية، ويتفاعل هذه العناصر لتحقيق الوظيفة الجمالية"⁽⁵⁵⁾، وهو بهذا يضيف إلى جمال العمران جمالا لغويا بتشعير مكوناته ليُشكّل العمران والشعر تناسقا يكون الشاعر عمر هيبة أحد أهم مهندسيه في الشعر الجزائري المعاصر.

وفي لحظة رومانسية ألقّت بظلالها على الشاعر نجده يتغني بهذا العمران مشيدا بالإنسان الذي افتك من مصاعب الحياة ربوعا تنتشر فيها الحياة بزخمها الحضاري، حيث يقول⁽⁵⁶⁾:

يا ساعداً طوَّعَ الأحجارَ لينةً وحوَّلَ الجَدْبَ ماءً والثَّرَى طِيناً
ووزَّعَ النُّخْلَ أَمْناً والكرومَ هوىً وفتَّقَ الرَّمْلَ أزهاراً رياحيناً
فضوَّعَ الوردُ مِسْكَاً والزهورُ شذىً ورثَمَ الطَّيْرُ تغريداً وتلحيناً

لا شك أن للصحراء وللجنوب حضورا في شعر عمر هيبة، فها هو في هذه الأبيات يجسد صورة الشاعر المرتبط ببيئته بشعرية رومانسية، فراح يستحضر بعض رموز الطبيعة التي تتجاوب مع واقعه النفسي الذي ارتبط بهذا العمران الراقي، وعناوين دواوينه تؤكد تلك الرومانسية المتواصلة مع الطبيعة والعمران مثل: قلب وحجر، حديث القرى، أغنيات البراءة، عن بلاد المجد والشمس، أكباد على الرمل"، وهو على غرار ما عُرِفَ عن الشعراء الرومانسيين العرب والجزائريين حين "بلغت عناية هؤلاء الشعراء بمظاهر الطبيعة إلى حد أن جعلوا عناصرها عناوين لدواوينهم وقصائدهم"⁽⁵⁷⁾، ومثل هذه العناوين تؤكد التصاقه بكل ما يبرز مآثر بيئته في واد مزاب والجزائر

والعالم الإسلامي، فالقلب والحجر، القرى، البراءة، الرمل، الشمس، كلها ألفاظ من معجم الطبيعة التي لها علاقة بالجنوب في شقه المتفائل. وبيرومانسية حاملة ورد في مقدمة ديوانه "حديث القرى" قوله: "هذه المجموعة الشعرية لن تحلق بعيدا، ولن تنسلخ من أصالة هذه القرى، فهي تعانق هموم ساكني هذه القرى لتتحدث عنها، فتذرف دمعة تارة وترسل ابتسامة تارة أخرى، لمواضيع قد تُعدُّ تافهة أو بسيطة، إلا أن البساطة ورقة المشاعر والعواطف أسمى ما يمتاز به الإنسان، وأعلى ما يملك"⁽⁵⁸⁾، وفي الأبيات المقترحة يتضح معجمه الرومانسي الذي يمتح من الطبيعة مفرداته: الأحجار، الجذب، الثرى، الطين، النخل، الكروم، الرمل، أزهار، رياحين، الورد، مسك، الزهور، شذى، الطير، تغريد، تلحين، ليعبر بها عن افتتانه بهذه الإرادة التي حولت القصر جنة، وأشاعت الأمن والمحبة في هذه الربوع، فاستعان بألفاظ استعارها من جمال الطبيعة ليعبر بها عن ولائه لكل من يصنع الجمال الذي يُسعدُ به الإنسانية.

وحرصا على هذا النسق الذي يعزز به ما يَكُنُّه من ولاء للإنسان الذي ساهم في بناء هذا الصرح من الحضارة في واد مزاب راح يوظف الأفعال الماضية التي اختارها من صيغة واحدة وهي "فَعَلَ": طَوَّعَ، حَوَّلَ، وَزَّعَ، فَتَّقَ، ضَوَّعَ، رَنَّمَ؛ هذه الصيغة التي "تستعمل لجعل الفعل المجرد اللازم فعلا مزيدا متعديا، أو لتزيد متعديا في تعديهِ، إن كان متعديا في الأصل... أما معانيها فأهمُّها المبالغة والتكثير..."⁽⁵⁹⁾، وهي توحى بذلك الجهد الكبير، والخير الكثير الذي قدمه الإنسان من جهة، كما نلمس استمتاع الشاعر بذلك الماضي الجميل والمتميز الذي لا يلمسه في واقعه من جهة أخرى، ولذلك ركن إلى الماضي بهذه الكثافة حتى لا يقطع سلسلة استمتاعه بهذا الكنز العظيم، وكأنها إدانة للواقع الذي عجز عن الإضافة أيضا، فإذا كانت الأفعال ماضية إلا أن حركيتها تظل مستمرة في الحاضر؛ فهنا نجد الماضي "يتضمن المستقبل أيضا ذلك أن الرحلة مستمرة عبر الحاضر وممتدة نحو المستقبل"⁽⁶⁰⁾، فأمر هذه الحضارة مستمر لا يزال يفرض مهابته في الحاضر الذي لم يرتق لهذا الماضي الجميل، وكأن الماضي أصبح متجددا مستمرا في الحاضر، والحاضر متوقفا جامدا، ولعل ذلك ما جعل الشاعر يُحْمَلُ على لسان الوالد ولده

مسؤولية استمرار هذه الحضارة بالمحافظة على هذا الإرث الكبير، وضرورة إغنائه وتفعيله حتى تتواصل مسيرة الإنماء والإعمار، بالصبر والجهد والصراحة، وذلك في قوله⁽⁶¹⁾ :

ولدي ومجدك ها هنا فالجهدُ يبني الموطناً
مِنْ أَلْفِ عامٍ والقُرى موجودةٌ لكَ مأمناً
مَنْ كان يملكُ أو كان يَعْرِفُ مَنْ أنا
صَبْرًا

فَلْيَتَّخِذْ مِنْ صَخْرِها قلباً يُضَرِّسُهُ الضَّنَى
وَلْيَتَّخِذْ مِنْ رَمْلِها حركيةً تُثْري الدُّنَى
وَلْيَتَّخِذْ مِنْ شَمْسِها معنى الصَّراحةِ والسَّنَى

ففي بحثه عن المستقبل نجد الشاعر يستند إلى الفعل المضارع "يبني، يملك، يعرف، يضرس، تثري" للتعبير عن طموحاته في مواصلة الأبناء مسيرة الآباء، ويتعلم من الصخر والرمل والشمس أبجديات الوجود والمقاومة والتحدي، وهو ما يتلاءم مع الفعل المضارع الذي يفيد التجدد والحركة والاستمرارية، وذلك ما يرجوه الشاعر من الأبناء الذين هم عنوان المستقبل، كما نجد تكراراً في فعل الأمر المشكل من لام الأمر والفعل المضارع "وَلْيَتَّخِذْ" ثلاث مرات، والذي ورد بغرض الحث على المحافظة على هذا الموروث، كما يُوْشِّر على وجود حالٍ نفسيةٍ شديدة الحرص على التمسك بكل ما يمت بصلة إلى هذه الحضارة العريقة، وبذلك "تنبع القيمة الفنية للعبارة المكررة في هذا الصنف من التكرار من كثافة الحالة النفسية التي تقترن بها"⁽⁶²⁾، والمؤسسة على الحث والتوجيه نحو غد يريد منه الشاعر استمرار هذه الحضارة في ربوع واد مزاب.

كما نجد الأسماء "ولد، مجد، جهد، الموطن، ألف عام، القرى، مأمناً، صبر، صخر، قلب، الضنى، رمل، حركية، الدنى، شمس، معنى الصراحة، السنَى" في هذا المشهد الشعري؛ إذ "ترمز الأسماء إلى الثبات"⁽⁶³⁾، فبقدر ثباتها واستقرارها إلا أنها تؤكد تجذر هذه الحضارة في التاريخ، فهو يختار الأسماء التي تجسد هذا العمق الحضاري العمراني الذي تحدي الظروف في الصحراء من الرمل والشمس والجهد والصبر وغير ذلك، "فالنص الشعري

الفني بالأشكال الاسمية يمكنه أن يوحي بعدة دلالات تتعلق بالسكون واللاحركة والجمود"⁽⁶⁴⁾، إلا أن الشاعر عمر هيبه أراد لها أن تنفلت من أسر السكون والتوقف، ويبعث فيها حيوية الفعل رغبة منه في استمرار المد الحضاري بواد مزاب لقرون أخرى بواسطة تكراره للفعل المضارع المجزوم بلام الأمر "ولِيَتَّخِذْ"، الدال على الحركية والاستمرارية.

إلا أنه في قمة الزهو بهذا الانتصار التاريخي الذي حققه الأجداد بمنجزاتهم الحضارية لا ينسى أن يتساءل عن مسؤولية الأجيال في هذا الإرث الكبير من السير على نهج الجدود، وفي ذلك يقول⁽⁶⁵⁾:

و أسلافنا - لو نعي- فقد حوّلوا الجدبَ نخلاً وماءً
قدوةً

فشادوا القرى رغم شحّ وعُسْرٍ وشقّوا السدودَ بكلّ اعتناء
أليسَ لعهدِ الجدودِ قلوبٌ؟ أليسَ جديراً بنا الاقتداء؟

وقد استعان في التشديد على أهمية استشعار دور الأجداد وما خلفوه من الأثر الطيب، والدعوة إلى الاقتداء بالاستفهام بالهمزة والنفي "ليس" التي تفيد في هذا المجال الإنكار مع ملمح من التوبيخ؛ إذ الشاعر ينكر على الأبناء الاكتفاء بالحنين دون العمل، فالأبناء البررة لا يحنون فقط بل يُشَفَّعُونَ حنينهم بالعمل؛ لأن مثل هذه الحضارات التي خلدها الزمن لم تكن لتقام لولا العمل الجاد.

الهوامش:

- (1) عمر بن باحمد هيبه من مواليد قصر بنورة يوم الجمعة 14 جمادى الأولى 1364هـ/27 أفريل 1945م، دخل مدرسة الثبات الحرة، والمدرسة الرسمية الفرنسية ببونورة في التعليم الابتدائي، ثم بمدرسة الثبات فقط في التعليم المتوسط والثانوي، التحق معلما بالمدرسة (الثبات) ببونورة، ومدرسة المسجد بمليلة العليا الحرتين. تحصل على الشهادة الأهلية (ماي 1969م)، وتاهل بها للتعليم الرسمي في الجزائر العاصمة بالمدرسة القنصلية، و"فيتور مارشي" بحي السيدة الإفريقية، التحق طالبا بقسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الجزائر المركزية موسم 1971م - 1972م، من دواوينه الشعرية: قلب وحجر - حديث القرى - أغنيات البراءة - عن بلاد المجد والشمس - أكباد على الرمل، ولا يزال يواصل نشاطه الأدبي إلى اليوم..
- (2) د/ محمد غنيمي هلال، قضايا معاصرة في الأدب والنقد، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، ط1، دت، ص53
- (3) جمعية الاستقامة، العمارة والعمران الإياضي بواد مزاب، بكير أولاد بابيهون (كلمة الافتتاح)، (الأيام الدينية الخامسة المنعقدة بالعالية - الجزائر العاصمة)، 5 - 6 ذو الحجة 1410هـ - 28 - 29 جوان 1990م، ص7.
- (4) إبراهيم محمد طلاي، مزاب بلد كفاح، مطبعة الأفاق، بني يزقن، غرداية، الجزائر، دت، ص24.
- (5) مفدي زكرياء، أضواء على وادي ميزاب ماضيه وحاضره، دراسة وتحقيق إبراهيم بحاز، منشورات ألفا، قصر المعارض، الصنوبر البحري، الجزائر، ط1، 2010، ص71
- (6) عمر بن باحمد هيبه، قلب و حجر، (المقدمة)، المطبعة العربية، غرداية، 1426هـ/ 2005م، ص (ك).
- (7) محمد الصالح خريفي، جماليات المكان في الشعر الجزائري المعاصر، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم، جامعة منتوري، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، قسنطينة، 1428هـ - 1429هـ/ 2005م - 2006م، ص115
- (8) <https://www.maghrebovoices.com/a/Algeria-mzab/471022.html>
- (9) يوسف بن بكير الحاج سعيد، قاربخ بني مزاب، المطبعة العربية، غرداية، دط، 1992م، ص86.
- (10) د/ فاروق عبد الحكيم درباله، الموضوع الشعري، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر الجديدة، ط1، 2005، ص384.
- (11) المرجع نفسه، ص383.
- (12) عمر بن باحمد هيبه، أغنيات البراءة، المطبعة العربية، غرداية، 1435هـ - 2013م، ص12.
- (13) الأزهر الزناد، دروس في البلاغة العربية - نحو رؤية جديدة، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، سبتمبر، 1992م، ص66.

- (14) عبد الإله الصائغ، الخطاب الشعري الحدائوي والصورة الفنية- الحداثة وتحليل النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999م، ص266.
- (15) سمير علي سمير الدليمي، الصورة في التشكيل الشعري، دار الشؤون الثقافية العامة "آفاق عربية"، بغداد، العراق، ط1، 1990، ص80.
- (16) عمر بن باحمد هيبة، قلب وحجر، ص20- 21
- (17) صلاح فضل، نقد الشعر (تحولات الشعرية العربية ونبرات الخطاب الشعري)، مج1، ج: 1و2، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط1، 1431هـ - 1432هـ / 2009م - 2010م، ص117.
- (18) د/ مختار علي أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل 1995م، ص23، 24.
- (19) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: د/ محمد رضوان الداية، د/ فايز الداية، دار الفكر، دمشق، ط1، رجب 1428هـ، أغسطس 2007م، ص110.
- (20) ينظر: عبد الإله الصائغ، الخطاب الشعري الحدائوي والصورة الفنية- الحداثة وتحليل النص، ص258.
- (21) د/ إبراهيم السامرائي، الفعل زمانه وأبنيته، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1403هـ - 1983م، ص24.
- (22) فاتح علاق، في تحليل الخطاب الشعري، دار التنوير للنشر والتوزيع، حسين داي، الجزائر، ط2، 1429هـ - 2008م، ص141.
- (23) عمر بن باحمد هيبة، حديث القرى، ص77- 78
- (24) يوسف مسلم أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمّان، ط4، 1437هـ - 2016م، ص271.
- (25) مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1986م، ص242.
- (26) كلود بافارد (Claude Pavard)، أضواء ميزاب (lumiere du M'zab)، edition Boulogne-Billancourt, Delroisse, France, 1974.
- (27) عمر بن باحمد هيبة، حديث القرى، ص78
- (28) جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 1992م، ص173.
- (29) د/ محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري- استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2005م.
- (30) مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، ج1، راجعه د/ عبد المنعم خفاجة، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط28، 1993م، ص178.
- (31) عمر بن باحمد هيبة، حديث القرى، ص44.

- (32) د/ يحيى بن بهون الحاج امحمد، فن العمارة الإسلامية بوادي مزاب جنوب الجزائر-
دراسة في المكونات الحضارية والاجتماعية، مجلة الحياة، نشر جمعية التراث، القرارة،
غرداية، ع 19، رمضان 1436هـ/ جويلية 2005م، ص 96.
- (33) الأزهر الزناد، دروس في البلاغة العربية - نحو رؤية جديدة، ص 53.
- (34) المرجع نفسه، ص 56.
- (35) المرجع نفسه، ص 23، 24.
- (36) نورة ولد أحمد، شعرية القصيدة الثورية في اللهب المقدس، دار الأمل للطباعة والنشر
والتوزيع، 2008، ص 99.
- (37) سورة الأنبياء، الآية 30.
- (38) مسعود خرازي، المنجز الشعري المعاصر واتجاهاته بمنطقة غرداية، مجلة الذاكرة، مخبر
التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، كلية الآداب واللغات، جامعة
قاصدي مرباح، ورقلة، عدد 5، ماي 2015، ص 223.
- (39) إبراهيم محمد طلاي، مزاب بلد كفاح، ص 70.
- (40) عمر بن باحمد هيبة، حديث القرى، ص 44.
- (41) د/ محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، ص 121.
- (42) الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب
تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، رقم 6026، دار بن كثير، بيروت، دمشق، ط 1، 1423هـ-
2002م، ص 1511.
- (43) السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، ضبط وتدقيق وتوثيق د/
يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط 1، 1999م، ص 219.
- (44) يحيى الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء دراسة فنية تحليلية، دار البعث للطباعة
والنشر، قسنطينة، الجزائر، ط 1، 1407هـ- 1987م، ص 320.
- (45) جمعية الاستقامة، العمارة والعمران الإياضي بواد مزاب، تاريخ وادي مزاب، قاسم بن الحاج
سعيد بسيس، ص 22.
- (46) عمر بن باحمد هيبة، حديث القرى، ص 44.
- (47) محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، سنن الترمذي، كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله،
باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، رقم 1639، اعتنى به أبو عبدة مشهور بن حسن
آل سلمان، علق عليه محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط 1، دت،
ص 385.
- (48) د/ فاتح علاق، في تحليل الخطاب الشعري، ص 60.
- (49) الأزهر الزناد، دروس في البلاغة العربية - نحو رؤية جديدة، ص 25.
- (50) د/ جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي
العربي، بيروت، ط 3، 1992، ص 192.

- (51) الأزهري الزناد، دروس في البلاغة العربية - نحو رؤية جديدة، ص56.
- (52) نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت، آذار ط 6، مارس 1981، ص276.
- (53) نجاح نصار البطي، تجليات الخطاب الشعري عند مظفر النواب، دال للنشر والتوزيع، دمشق، سورية، ط1، 2011، ص138.
- (54) عمر بن باحمد هيبه، حديث القرى، ص9.
- (55) نواره ولد أحمد، شعرية القصيدة الثورية في اللهب المقدس، ص46.
- (56) عمر بن باحمد هيبه، حديث القرى ص45.
- (57) أحمد عوين، الطبيعة الرومانسية في الشعر العربي الحديث، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2001م، ص45.
- (58) عمر بن باحمد هيبه، حديث القرى، (المقدمة)، ص (ل).
- (59) د/ حاتم صالح الضامن، الصرف، مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر، الموصل، العراق، 1991، ص54.
- (60) د/ فاتح علاق، في تحليل الخطاب الشعري، 114.
- (61) عمر بن باحمد هيبه، أغنيات البراءة، ص79.
- (62) نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، ص287.
- (63) د/ فاتح علاق، في تحليل الخطاب الشعري، ص140.
- (64) رشيد بديدة، البنيات الأسلوبية في مرثية بلقيس لنزار قباني، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية و آدابها، جامعة باتنة، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في شعبة اللسانيات العامة، السنة الجامعية 1431هـ - 1432هـ / 2010 - 2011 م، ص78.
- (65) عمر بن باحمد هيبه، أكباد على الرمل (ديوان)، مطبعة الآفاق، بني يزقن، غرداية، الجزائر، 2017، ص39.